الخاتمـــة

الخاتمـــة

وهكذا طالعتنا صفحات التاريخ على صورة مجيدة وفريدة من كفاح أجدادنا العظام من المصريين القدماء ، والتى رأينا من خلالها عقيدة راسخة فى الحفاظ على تراب الوطن المقدس وحماية حدود مصر الخالدة .. ومما لا شك فيه أننا نستطيع الخروج بالكثير من الدروس السياسية والاستراتيجية من خلال تلك الحقبة التاريخية التى مرت بها مصر ، بداية من تحريرها من الغزاة الهكسوس ، ثم تكوينها لأول إمبراطورية فى تاريخ العالم القديم فى منطقة الشرق الأدنى ، والتى امتدت من أعالى الفرات فى سوريا شمالاً وحتى الجندل الرابع ببلاد النوبة جنوباً خلال ذروة توسعها العسكرى ومجدها التاريخى .. فالحقيقة التاريخية تؤكد أنه ليس هناك من وسط فى تاريخ مصر بأى حال من الأحوال ، وهى الحقيقة التى أكد عليها المفكر المصرى القدير الراحل الدكتور « جمال حمدان » ، حين قال فى الجزء الأول من كتابه الشهير « شخصية مصر » : « الحقيقة أنه لا وسط فى تاريخ مصر ، إما قوة عظيمة سائدة رادعة ، وإما تابعة خاضعة عاجزة » ، كما قال فى موضع آخر عن رؤيته لمستقبل مصر وحاضرها : « مصر اليوم إما أن تحوذ القوة أو تنقرض ، إما القوة وإما الموت ، فإذا لم تصبح مصر قوة عظمى تسود المنطقة فسوف يتداعى عليها الجميع يوماً ما كالقصعة ، أعداء وأشقاء وأصدقاء وأقربون وأبعدون ». فهذا بالفعل هو الدرس الأهم لكل دارس لتاريخ الأمة المصرية على وجه العموم ، ولتاريخ مصر القديمة خلال عهد إمبراطوريتها على وجه الخصوص ، وهى معادلة الماضى والحاضر والمستقبل .. وقد بدا هذا الأمر واضحاً جلياً من خلال دراستنا هذه ، منذ أن وقعت مصر فريسة للاحتلال الأسيوى من قبل الغزاة الهكسوس حتى تمكنت من تحرير ترابها واستعادة كرامتها ، وحتى تبلورت الرؤية الاستراتيجية لملوك مصر فى أن أمنها القومى واستقلالها وبقاء حضارتها ووجودها قد أصبح مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقوة الجيش المصرى الرادعة ، التى أصبحت الضمان الوحيد لبقاء وخلود الأمة المصرية فى منطقة اعتبرت هى الأهم فى العالم فى موقعها الجغرافى والاستراتيجى ، والتى كانت ولا تزال وستظل مطمعاً لكل قوى العالم السياسية والعسكرية الكبرى الطامحة فى السيطرة السياسية والاقتصادية ، والتى اتسمت دائماً عبر التاريخ بأنها تموج بالأحداث والتغيرات والتقلبات

السياســية والديموجرافيــة نظــراً لأهميتهــا الاســتراتيجية الشــديدة ، فكــم مــن أمــم ودول وإمبراطوريات وكيانات قد ظهرت فى الشرق الأدنى عبر تاريخه الطويل ، وتحتم على مصر أن تجابه وتواجه هذه التغيرات والمستجدات كأقدم وأكبر دولة فى المنطقة ، رغم ما مر بها من مجد وصعود أو ضعف وانحطاط ، ولكنها بقيت المعادلة الأهم والأكبر فى تاريخ المنطقة على الاطلاق.

ومن ثم فقد أصبحت قضية امتلاك مصر للقوة العسكرية الرادعة هى قضية المصير الأولى بالنسبة إليها منذ احتلال الهكسوس وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، وهو بالفعل ما فعله ملوك طيبة الذين خاضوا حرب التحرير ضد الهكسوس واقتبسوا من العدو سلاحه الضارب المتمثل فى العربات (المركبات) الحربية التى تجر بواسطة الخيول ، والتى قد أدخلت إلى مناطق غربى آسيا على يد الشعوب الآرية التى وصلت إلى المنطقة خلال الألف الثانية قبل الميلاد ، واستخدمها الهكسوس فى هزيمة المصريين واحتلال أرضهم ، ثم تجلت العبقرية الحضارية والعسكرية الفذة لدى المصريين حين عملوا على تطوير هذا السلاح الضارب بشكل تقنى بارع وبتشكيلات عسكرية ضاربة داخل منظومة الجيش المصرى فى ميادين القتال ، فأصبح لهذا السلاح بتطويره المصرى الفضل فى انتصارات المصريين الحربية المذهلة والحاسمة فى المنطقة ، والتى أدت إلى بناء إمبراطوريتهم المترامية الأطراف الشاسعة الأركان فى آسيا وأفريقيا ، وتمكن الجيش المصرى من تحقيق الغلبة والتفوق على أعدائه ومناهضيه من جيوش وممالك ودول وإمبراطوريات الشرق الأدنى القديم طوال عهد الإمبراطورية المصرية .. كما كان لخطط التطوير الاستراتيجى التى أدخلها ملوك الأسرة الثامنة عشرة المحاربين – وعلى رأسهم الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » – داخل المؤسسة العسكرية المصرية ، وتنظيم الجيوش المصرية بشكل متطور يحدث لأول مرة فى تاريخ العالم القديم ، أثره البالغ والعميق فى احتفاظ مصر بتفوقها العسكرى فى المنطقة لفترة طويلة .. ولقد أثبتت الأحداث التاريخية من خلال ما مر بنا من فصول هذه الدراسة أن وجود القوة العسكرية الضاربة والرادعة لمصر ليس أمراً مصيرياً وحتمياً لأمنها القومى ووجودها فحسب ، بل ثبت – بما لا يدع مجالاً للشك – أن توافر هذه القوة هو صمام الأمان لمنطقة الشرق الأدنى بأكملها ، ولست أعتقد أن هذه النظرية تنطبق على أحداث التاريخ القديم فحسب ، بل تنطبق

كذلك على أحداث التاريخ الحديث والمعاصر .. ولنا أن نتخيل كيف كان سيكون مصير منطقة الشرق الأدنى القديم بأكملها بدولها وحضاراتها المختلفة لو تمكنت شعوب البحر من مواصلة زحفها البربرى المدمر فى المنطقة دون أن يتصدى لهم الجيش المصرى خلال عهد الملك « رمسيس الثالث » فى معركتين حاسمتين أحدهما برية عند منطقة جاهى بسواحل لبنان وكنعان (فلسطين) وثانيهما بحرية عند سواحل الدلتا المصرية ، تسببا فى إنقاذ مصير المنطقة من الخراب والدمار المحقق على يد هذه الشعوب التى كانت تمارس الاستعمار الاستيطانى والسلب والنهب والخراب ومعاداة الحضارة والتمدن بشتى الطرق ، فلولا الجيش المصرى ووجوده لضاعت حضارة هذه المنطقة وساد التخلف وشريعة الغاب لسنوات طوال .. كما أن القوة العسكرية المصرية قد تسببت فى فرض التوازن الاستراتيجى بين القوى الكبرى فى المنطقة ، بل وفرض سياسة السلام وما يرتبط بها من ثقافة بين الدول والشعوب ، وهو الأمر الذى تجلى بوضوح فى السنوات التى تلت معركة قادش الكبرى خلال عهد الملك « رمسيس الثانى » ، حين أدى النضال العسكرى لهذا الفرعون المحارب العظيم ولجيش مصر الباسل إلى عقد أول معاهدة سلام فى التاريخ بين المصريين والحيثيين ، والتى كان لها عظيم الأثر فى أن تنعم المنطقة بالهدوء والاستقرار لسنوات طوال.

ولعل الدرس الأسمى والأهم يتمثل فى إدراكنا بأن المفهوم الحقيقى للأمن القومى المصرى وبقاء الأمة المصرية هو ترسيخ الاعتقاد بأن حدود مصر الطبيعية انما تبدأ فى سوريا ، وأن عقيدة النضال السياسى والعسكرى لدى المصريين يجب أن تتمثل فى تحقيق السيطرة السياسية والعسكرية المصرية فى بلاد الشام لمجابهة كل القوى المعادية لمصر فى المنطقة .. لقد أدرك الأجداد منذ وقوع الاحتلال الأجنبى الأول لأمتنا أنه لا أمان أو استقرار لمصر إلا ببناء إمبراطورية عظمى تمتد من الفرات بسوريا شمالاً حتى الجندل الرابع بالنوبة جنوباً ، وقد خاضوا المعارك التاريخية المختلفة فى سبيل هذه الاعتقاد حفاظاً على تراب مصر المقدس ، وليس طمعاً فى احتلال أراضى الغير واستعباد الشعوب كما فعل الفرس واليونان والرومان وغيرهم من الأمم المعتدية فى التاريخ القديم ، فإن مصر لم تكن يوماً دولة احتلال أو اعتداء.

لقد سجل ملوك مصر المحاربين العظام خلال عهد إمبراطوريتها رسالة خالدة لخلفائهم من ملوك مصر وللأجيال القادمة من أبناء أمتنا ، تتمثل فى أنه ليس هناك ما هو أسمى أو أعظم من الحفاظ على حدود هذه الأمة ، ففى كل انتصار عظيم حققوه على الغزاة أو الطامعين أو الحاقدين على مصر من الشعوب الأجنبية المختلفة ، حرصوا كل الحرص فى نصوصهم – المسجلة على جدران معابدهم أو لوحات انتصاراتهم أو برديـاتهم الشهيرة – على افتخارهم الشديد بحماية حدود مصر ، والعمل على توسيع رقعتها ، واعتبروا أن ذلك العمل الجليل والمقدس هو من أسمى واجباتهم تجاه أمتهم وشعبهم ، بل صار عقيدة دينية راسخة ومتأصلة فى الوجدان المصرى ، فكان أسمى ما يصور به ملوك عصر الإمبراطورية المحاربين على جدران المعابد المصرية مناظر قمعهم للأسرى الأجانب من الأسيويين والكوشيين والليبيين بعد تحقيق النصر عليهم فى المعارك أمام المعبودات المصرية التى خاضوا القتال تحت رايتها ، وقد صورت هذه المعبودات – وعلى وجه الخصوص آمون رع إله طيبة والدولة الرسمى – وهى تمنحهم سيف النصر ، وتلقى عليهم كلمات المديح والتبجيل لقيامهم بدورهم العظيم فى حماية حدود مصر المقدسة .. وكأن هذه المناظر المخلدة عبر مئات السنين على جدران المعابد المصرية فى عصر الإمبراطورية رسالة تاريخية خالدة للأجيال القادمة من المصريين الذين سيقدر لهم أن يحملوا راية الكفاح والنضال لهذه الأمة من جديد !

* * * * *